تطبيقات بلاغية لسياقات كلمتي (الكتاب) و(القرآن) في أوائل السور

د٠ محمد حسام عبد الكريم محمد عبد العزيز(*)

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد.

فإن من أعظم العلوم التي يتوصل فيها لفهم كلام الباري سبحانه ومراداته هو علم البلاغة الذي يعنى بدراسة إيصال المعنى المقصود في قوالب متنوعة من اللفظ، واختيار ما يناسب مقتضى حال المخاطب في ظرفه المكاني والزماني. وأعظم البلاغة وأجلها ومنتهى علوّها منحصر في القرآن الكريم، فالعلماء متفقون على أنه معجز للعرب الفصحاء البلغاء بفصاحته وبلاغته ونظمه، ومن مقتضى هذا أن كل كلمة أو جملة منه لا يسد مسدها كلمة أو جملة أخرى.

ومن أوجه البلاغة القرآنية تنوع الأساليب في استخدام الألفاظ المفردة، ومثال ذلك أنه قد يعبر عن القرآن بلفظة (الكتاب) وحدها، وأحياناً يعبر عنه بلفظة (القرآن) وحدها، وأحياناً يعبر عنه باللفظتين معًا، فتكون إحداهما معرفة والأخرى نكرة، وأحياناً العكس، وأحياناً تكون إحداهما مقدمة على الأخرى في موضع، ومؤخرة عنها في موضع آخر، وأحياناً تتشابه المؤكدات لهاتين اللفظتين، وأحياناً تختلف.

(*) أستاذ مشارك في التفسير وعلوم القرآن، قسم الدراسات الإسلامية، جامعة طيبة، المدينة المنورة – فرع العلا.

ومثال ذلك كلمة (الحق)، فقد وردت منكرة في موضع[١]، ومعرفة في موضع آخر[٢]، وكلمة (النار) فقد وردت معرفة في موضع[٣]، ومنكرة في موضع آخر[٤]، وهكذا.

وقد عاب العرب على الشعر المنمق الموزون، وليس مقرونًا بجاره، ولا مضمومًا لشبهه. ومنه: قول أحدهم لرؤبة: مت يا أبا الجحاف إذا شئت. قال: وكيف ذاك؟ قال: رأيت اليوم عقبة بن رؤبة ينشد شعرًا له أعجبني. قال: فقال رؤبة: نعم، إنه ليقول، ولكن ليس لشعره قران[٥]. وقول عمرو بن لجأ لبعض الشعراء: أنا أشعر منك! قال: وبم ذلك؟ قال: لأني أقول البيت وأخاه، وأنت تقول البيت وابن عمه. وقالوا: القصيدة إذا كانت كلها أمثالا لم تسر، ولم تجر مجرى النوادر، ومتى لم يخرج السامع من شيء إلى شيء لم يكن لذلك عنده موقع[٦].

ومن هنا جاء هذا البحث ليكشف بعضًا عن هذه البلاغة بدراسة السياقات الواردة في أوائل السور في كلمتي (الكتاب والقرآن) من حيث اقتران لفظة (آيات) بهما، ومن حيث تعريفهما وتنكيرهما، وتقديمهما وتأخيرهما، وتغير المؤكدات بينهما؛ للتوصل إلى جماليات القرآن، وقدرته على تنمية الإحساس الأدبي بين الناس.

مشكلة البحث وصعوبته: تظهر مشكلة البحث في عدة أمور، منها:

---

(١) ومثاله قوله تعالى: "ويقتلون النبيين بغير حق" (آل عمران: ٢١).

(٢) ومثاله قوله تعالى: " ويقتلون النبيين بغير الحق" (البقرة: ٦١).

(٣) ومثاله قوله تعالى: " فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة" (البقرة: ٢٤).

(٤) ومثاله قوله تعالى: " قوا أنفسكم وأهليكم نارًا وقودها الناس والحجارة" (التحريم: ٦).

(٥) القران: الموافقة والمشابهة. انظر: الشعر والشعراء، عبد الله بن مسلم بن قتيبة، (٩١/١).

(٦) البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، (١٧٩/١).

١- عدم وجود دراسات-فيما أعلم- تناولت كلمتي (الكتاب والقرآن) من حيث التعريف والتنكير والتقديم والتأخير وتنوع المؤكدات.

٢- صعوبة تحديد المعنى المراد من الأسلوب القرآني في سياق هذين اللفظين، فمرة يأتي معرّفًا، ومرة منكّرًا، ومرة مقدّمًا، ومرة مؤخرًا، ومرة مؤكدًا بـــ (إن)، ومرة مؤكدًا بالقسم، وهكذا.

الدراسات السابقة :

كتب الباحث بحثًا سابقًا سمّاه: (مقارنة دلالية بين لفظي الكتاب والقرآن في مقدمات السور)، تعرّض فيه لبيان معاني هذين اللفظين في الآية الواحدة مشفوعًا بالروايات التفسيرية، ودراسة أسانيدها، والحكم عليها صحة أو ضعفًا، وإعمال الاجتهاد بالرأي في ترجيح أحد هذه المعاني. وأما هذا البحث فلم يتطرق إلى ما سبق ذكره، وإنما جاء ليدرس بعض الأساليب البلاغية في سياقات هاتين الكلمتين من حيث التعريف والتنكير والتقديم والتأخير وتغير المؤكدات.

حدود البحث :

تناول البحث بعض المسائل البلاغية في لفظ (الكتاب) و(القرآن) في أوائل السور، من خلال الرجوع إلى كتب التفسير المنقولة والمعقولة، وكتب البلاغة واللغة.

أسباب البحث: يحاول البحث الإجابة عن الأسئلة الآتية:

١- ما فائدة اقتران لفظة (آيات) بالكتاب والقرآن؟

٢- ما فائدة اقتران اسم الإشارة (ذلك) بالكتاب، وعدم اقترانه بالقرآن؟

٣- ما فائدة تعريف الكتاب والقرآن في مواضع، وتنكيرهما في مواضع أخرى؟

٤- ما فائدة تقديم الكتاب على القرآن في موضع، وتأخير الكتاب عن القرآن في موضع آخر؟

٥- ما فائدة تنوع المؤكدات وتغيرها في مواضع، وعدم وجودها في مواضع أخرى؟

أهداف البحث: يهدف البحث إلى عدة أمور، منها:

١- بيان أوجه الاتفاق والاختلاف بين الكلمتين لغويّا

٢- دراسة الكلمتين من حيث اقتران لفظة (آيات) بهما.

٣- دراسة الكلمتين من حيث اقتران اسم الإشارة (ذلك) بالكتاب، وعدم اقترانه بالقرآن.

٤- دراسة الكلمتين من حيث التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، وتنوع المؤكدات.

خطة البحث: توصل الباحث إلى خطة للبحث مكونة من خمسة مباحث على النحو الآتي:

عنوان البحث: تطبيقات بلاغية لسياقات كلمتي (الكتاب) و(القرآن) في أوائل السور

-المقدمة:

-المبحث الأول: الاتفاق والافتراق اللغوي بين (الكتاب) و(القرآن).

-المبحث الثاني: اقتران لفظة (آيات) بهما ودلالاته.

-المبحث الثالث: اقتران لفظ (الكتاب) باسم الإشارة (ذلك) وعدم اقترانه بـــ (القرآن).

-المبحث الرابع: تطبيقات على (الكتاب والقرآن) من حيث التعريف والتنكير.

-المبحث الخامس: تطبيقات على (الكتاب والقرآن) من حيث التقديم والتأخير.

-المبحث السادس: تطبيقات على (الكتاب والقرآن) من حيث تنوع المؤكدات.

-الخاتمة والتوصيات.

المبحث الأول

الاتفاق والافتراق اللغوي بين (الكتاب) و(القرآن)

أولا: من حيث الاتفاق:

اشترك الاسمان (الكتاب) و(القرآن) في الدلالة اللغوية التي تفيد معنى الضم والجمع، فمادة (كتب) تدل على جمع شيء إلى شيء[١]، ومادة (قري) تدل على جمع واجتماع[٢]، وكذلك مادة (قرأ) من القرء وهو الجمع[٣].

فيكون المعنى للفظ (الكتاب) أن حروفه مجموعة في صحف وأوراق، ومعنى لفظ (قرآن) أن حروفه مجموعة في النطق والألفاظ . فهما متفقان في نفس المادة المجموعة، وهي: الحروف والكلمات.

وعلى هذا فهما مشتركان في أنه يصح أن يراد بالكتاب المكتوب، وبالقرآن المقروء، من باب تسمية المصدر باسم المفعول.

ثانيًا: من حيث الافتراق:

لم يختلف العلماء في أن مادة (الكتاب) مصدر من (كتب)، بخلاف (القرآن)، فقد قيل: إنها مصدر كغفران ورجحان[٤]، وقيل: هي وصف[٥]، كرُضوان وبنيان.

ولم يختلف العلماء على أن (الكتاب) لفظ مشتق، بخلاف (القرآن) فقد ورد خلافهم في جموده واشتقاقه[٦].

---

(١) مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، (١٥٨/٥).

(٢) القاموس المحيط، الفيروز آبادي، (٤٩/١).

(٣) تهذيب اللغة، محمد بن الأزهري، (٢١١/٩).

(٤) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، (٦٦٨/١).

(٥) معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، (٣٢٩/٢).

(٦) التفسير البسيط، علي الواحدي، (٥٧٥/٣-٥٧٦).

ولم يختلف العلماء في أن جذر (الكتاب) من (كتب)، بخلاف (القرآن)، فقد قيل: إنها من (قري) أو (قرأ)، وقيل: (قرن) على من قال بأن (القرآن) مشتق.

وبداهة فإن موطن (الكتاب) في الصحف والأوراق والسطور، وموطن (القرآن) الجهاز الصوتي الموجود في الصدور.

وإن كان (الكتاب) و(القرآن) يتفقان في وجود آلة حتى يظهرا، إلا أن آلة الكتاب-كالقلم مثلًا-، تختلف عن آلة (القرآن) كاللسان والشفتين، فهما مختلفان في الآلة.

وبناء على ما تقدم فإن (الكتاب) محسٌّ وملموس وثابت، بخلاف (القرآن) فإنك لو فتحت صدر إنسان حافظ للقرآن، لم تجد له أثرًا ملموسًا في قلبه.

* *

المبحث الثاني

من حيث اقتران كلمة (آيات) بهما ودلالاته

ورد اقتران كلمة (آيات) بـــ (الكتاب) في قوله تعالى: (آيات الكتاب) في سورة يونس ويوسف والرعد والحجر والشعراء والقصص ولقمان على النحو الآتي:

١- قال تعالى: " الر تلك آياتُ الكتابِ الحكيمِ" (يونس:١)

٢- قال تعالى: " الر تلك آياتُ الكتابِ المبينِ" (يوسف:١)

٣- قال تعالى: " الر تلك آياتُ الكتابِ" (الرعد:١)

٤- قال تعالى: " الر تلك آياتُ الكتابِ وقرآنٍ مبينٍ" (الحجر:١)

٥- قال تعالى: " طس تلك آياتُ الكتابِ المبينِ" (الشعراء:١-٢)

٦- قال تعالى: " طسم تلك آياتُ الكتابِ المبينِ" (القصص:١-٢)

٧- قال تعالى: " الر تلك آياتُ الكتابِ الحكيمِ" (لقمان: ١-٢).

في حين اقترنت كلمة (آيات) بـــ (القرآن) في موطن واحد في سورة النمل في قوله تعالى: (تلك آيات القرآن وكتاب مبين) (آية:١).

وهذا فيه دلالة على أن (الكتاب) مكون من آيات، كما أن (القرآن) مكون من آيات أيضًا، مثل أن تقول: ذلك البيت، وتلك غرف البيت. فدلالة الجملتين واحدة، وهي وجود جماد يدعى (البيت)، إلا أن الجملة الثانية تبين أن البيت عبارة عن غرف، وليس مجرد حيطان وسقف.

ولذا عدّ بعض المفسرين (الكتاب) في هذه السور"جملة الآيات وجملة القرآن"[١]. وعلى هذا فالمراد من (آيات الكتاب) آيات الكتب المنزلة، والمراد من (آيات القرآن) المنزل على محمد-صلى الله عليه وسلم-خاصة. وحين يذكر اللفظان معًا كما في سورة الحجر والنمل، فالمراد بذلك الآيات ذات الموضوع

(١) معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم الزجاج، (١٥٣/٣).

الواحد بين الكتب السابقة والقرآن، دلالة على أن الكتب المنزلة بمجموعها يصدق بعضها بعضًا.

والتعبير (بآيات الكتاب) أو (بآيات القرآن) تعبير بمجموع الأجزاء ومحتواها، وأنها مجزأة إلى آيات، كما تقول: هذه مباحث المجلة، فأنت تقصد بذلك أن المجلة مقسمة إلى مباحث. كما أن في ذلك تعظيمًا لأجزاء الكتاب والقرآن، فكل آية فيه عظيمة؛ لأنها نسبة إلى الكل، فالجزء عظيم، والكل عظيم.

قال الزمخشري: "وإضافة الآيات إلى القرآن والكتاب المبين: على سبيل التفخيم لها والتعظيم؛ لأنّ المضاف إلى العظيم يعظم بالإضافة إليه"(١).

* *

(١) الكشاف، جار الله الزمخشري، (٣/٣٤٦).

المبحث الثالث

اقتران لفظ (الكتاب) باسم الإشارة (ذلك)
وعدم اقترانه بـــ(القرآن)

جاء اقتران الكتاب بـــ (ذلك) في سورة البقرة في قوله تعالى: (ذلك الكتابُ)، ولم يرد اقترانها بـــ (القرآن) مباشرة في أي من أوائل السور.

ذلك لأن اسم الإشارة (ذلك) يدل على شيء بعيد حقيقة أو حكمًا[١]، وفيه زيادة تنبيه[٢]. (فالكتاب) في ذلك الوقت صعب المنال على الناس، بخلاف (القرآن) الحاضر في قلوبهم المسموع في آذانهم، قال تعالى: (ولقد يسرنا القرآنَ للذكر فهل من مُدَّكِر) (القمر:١٧).

فالإخبار بالكتاب فيه إشارة إلى الكتب المنزلة التي كان يعرفها الناس كالتوراة والإنجيل، وفيه إشارة إلى الكتاب المصدق لهذه الكتب المنزلة- وهو القرآن[٣].

وهناك توجيه آخر، وهو أن (ذلك) بمعنى (هذا)، أي: هذا الكتاب[٤] الذي هو القرآن، وعلى هذا يكون المقصود باسم الإشارة تعظيم الكتاب ورفعته[٥]. وقد يراد معنًى آخر، وهو تمييز الكتاب المنزل أو القرآن عن غيره، حتى كأنه حاضر في الأذهان حسًّا[٦].

وأما التعبير عنه باسم الإشارة (هذا) في قوله تعالى: (وهذا كتابٌ أنزلناه مباركٌ) (الأنعام:١٥٥)، ففيه دلالة على تعظيمه بالقرب[٧]، لمن دارسه وتعلمه،

---

(١) شرح الكافية الشافية، ابن مالك، (٣١٦/١).
(٢) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (٢٢٠/١).
(٣) جامع البيان في تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، (٢٢٧/١).
(٤) المرجع السابق.
(٥) الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني، (٢٠/٢).
(٦) المرجع السابق، (١٨/٢).
(٧) جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، (١١٢/١).

وكذلك قوله تعالى: (إن هذا القرآن) (الإسراء:٩)، فإنه معظم بالقرب لمن قرأه وتقوّم بهداه، بخلاف قوله: (ذلك الكتابُ) ففيه تعظيم بالبعد؛ لأنه بعيد المنزلة عن الكتب الموضوعة من قبل الناس، أو هو بعيد عمن أعرض عنه، ولم يتدارسه ويتعلمه[١].

وأما اسم الإشارة (تلك) فلم يرد اقترانها بلفظ (الكتاب) أو (القرآن) مباشرة، وإنما جاء اقترانها بـــ (آيات الكتاب) في سورة يونس ويوسف والرعد والشعراء والقصص ولقمان، وجاء اقترانها بـــ (آيات القرآن) في سورة النمل فقط.

ودلالة (ذلك) هي دلالة (تلك) نفسها، إلا أن الفرق بينهما أن الأولى للمذكر والثانية للمؤنث.

وقد يقال: إن اسم الإشارة (تلك) للمؤنث، ومع ذلك استعملت في الإشارة للمؤنث وللمذكر، في قوله تعالى: (تلك آياتُ الكتابِ وقرآنٍ مبينٍ) (الحجر:١)، وقوله تعالى: (تلك آياتُ القرآنِ وكتابٍ مبينٍ) (النمل:١). والجواب على ذلك من عدة وجوه:

"**أحدُهما:** أنَّ المرادَ بالكتاب أو القرآن هو الآياتُ؛ لأنَّ الكتابَ أو القرآن عبارةٌ عن آياتٍ مجموعة، فلمَّا كانا شيئاً واحداً صَحَّت الإشارةُ إليهما بإشارةِ الواحدِ المؤنث.

الثاني: أنَّه على حذف مضاف، والتقدير: تلك آيات الكتاب وآياتُ قرآنٍ مبين. وعلى الآية الثانية يكون التقدير: تلك آيات القرآن وآيات كتابٍ مبين.

الثالث: أنه لَمَّا تقدم ذكر المؤنث على المذكر جاز التعبير بـــ (تلك) لكليهما، كقولك: (تلك سميرة ومحمد)، ولو تقدم المذكر على المؤنث لم يصح، كقولك: (تلك محمد وسميرة) "[٢].

---

(١) جواهر البلاغة، الهاشمي، (١١٢/١).
(٢) انظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، (٥٦٩/٨).

المبحث الرابع

تطبيقات على (الكتاب والقرآن)

من حيث التعريف والتنكير

جاء لفظ (الكتاب)- باللام والألف-في سورة البقرة وآل عمران ويونس ويوسف والرعد والحجر والإسراء والكهف والشعراء والقصص ولقمان والسجدة والزخرف والدخان والزمر وغافر والجاثية والأحقاف والجمعة، على النحو الآتي:

١- قال تعالى: " ذلك الكتابُ لا ريبَ فيه هدى للمتقين" (البقرة:٢)

٢- قال تعالى: " نزّل عليك الكتابَ بالحقِّ مصدقًا لما بين يديه " (آل عمران:٣)

٣- قال تعالى: " الر تلك آياتُ الكتاب الحكيمِ" (يونس:١)

٤- قال تعالى: " الر تلك آياتُ الكتاب المبينِ" (يوسف:١)

٥- قال تعالى: " الر تلك آياتُ الكتابِ" (الرعد:١)

٦- قال تعالى: " الر تلك آياتُ الكتابِ وقرآنٍ مبينٍ" (الحجر:١)

٧- قال تعالى: " وآتينا موسى الكتابَ" (الإسراء:٢)

٨- قال تعالى: " الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا" (الكهف:١)

٩- قال تعالى: " طس تلك آياتُ الكتابِ المبينِ" (الشعراء:١-٢)

١٠- قال تعالى: " طسم تلك آياتُ الكتابِ المبينِ" (القصص:١-٢)

١١- قال تعالى: " الر تلك آياتُ الكتابِ الحكيمِ" (لقمان: ١-٢)

١٢- قال تعالى: " الم* تنزيلُ الكتابِ لا ريبَ فيه من ربِّ العالمين" (السجدة: ١-٢)

١٣- قال تعالى: " تنزيلُ الكتاب من الله العزيزِ الحكيم* إنا أنزلنا إليك الكتابَ بالحقِّ فاعبُدِ اللهَ مخلصًا له الدينَ" (الزمر:١-٢)

١٤- قال تعالى: " حم تنزيلُ الكتابِ من الله العزيزِ العليم" (غافر:١-٢)

١٥- قال تعالى: " حم* والكتابِ المبينِ" (الزخرف:١-٢)

١٦- قال تعالى: " حم* والكتابِ المبينِ" (الدخان:١-٢)

١٧- قال تعالى: " حم* تنزيلُ الكتابِ من الله العزيزِ الحكيمِ" (الجاثية:١-٢)

١٨- قال تعالى: " حم* تنزيلُ الكتابِ من الله العزيزِ الحكيمِ" (الأحقاف: ١-٢)

١٩- قال تعالى: " هو الذي بعثَ في الأميينَ رسولًا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتابَ والحكمةَ وإن كانوا من قبلُ لفي ضلالٍ مبينٍ" (الجمعة:٢)

وجاء لفظ (كتاب) بدون-أل- في سورة الأعراف وهود وإبراهيم وسبأ والطور والنمل وفصلت، على النحو الآتي:

١- قال تعالى: " المص كتابٌ أنزلَ إليكَ فلا يكن في صدرِكَ حرجٌ منه لتنذرَ بهِ وذكرى للمؤمنين" (الأعراف:٢)

٢- قال تعالى: " الر كتابٌ أحكمت آياتُه ثم فُصِّلَت من لَدُن حكيمٍ حميدٍ" (هود:١)

٣- قال تعالى: " الر كتابٌ أنزلناه إليكَ لتخرجَ الناسَ من الظلماتِ إلى النورِ بإذنِ ربهم إلى صراطِ العزيزِ الحميد" (إبراهيم:١)

٤- قال تعالى: " تلك آياتُ القرآنِ وكتابٍ مبينٍ" (النمل:١)

٥- قال تعالى: " وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعةُ قل بلى وربي لتأتينكم عالمِ الغيبِ لا يعزبُ عنهُ مثقالُ ذرةٍ في السماواتِ ولا في الأرضِ ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ إلا في كتابٍ مبينٍ" (سبأ:٣)

٦- قال تعالى: " كتابٌ فُصلت آياتُه قرآنًا عربيًّا لقومٍ يعلمون" (فصلت:٣)

٧- قال تعالى: " والطورِ* وكتابٍ مسطورٍ" (الطور:١-٢).

وجاء لفظ (القرآن)- باللام والألف-في سورة النمل ويس وطه وص وق والرحمن والمزمل، على النحو الآتي:

١- قال تعالى: " تلك آياتُ القرآنِ وكتابٍ مبينٍ" (النمل:١)

٢- قال تعالى: " يس* والقرآنِ الحكيمِ" (يس:١-٢)

٣- قال تعالى: " طه* ما أنزلنا عليك القرآنَ لتشقى" (طه:١-٢)

٤- قال تعالى: " ص والقرآنِ ذي الذكرِ" (ص:١)

٥- قال تعالى: " ق والقرآنِ المجيدِ" (ق:١)

٦- قال تعالى: " الرحمنُ* علّمَ القرآنَ" (الرحمن:١-٢)

٧- قال تعالى: " أو زد عليه ورتِّل القرآنَ ترتيلًا" (المزمل:٤).

وجاء لفظ (قرآن) بدون-أل-في سورة الحجر والزخرف وفصلت والجن، على النحو الآتي:

١- قال تعالى: " الر تلك آياتُ الكتابِ وقرآنٍ مبينٍ" (الحجر:١)

٢- قال تعالى: " كتابٌ فصلت آياتُه قرآنًا عربيًّا لقومٍ يعلمون" (فصلت:٣)

٣- قال تعالى: " حم* والكتابِ المبينِ" (الزخرف:١-٢)

٤- قال تعالى: " فقالوا إنا سمعنا قرآنًا عجبًا" (الجن:١)

وحتى يحكم على لفظي (كتاب) و(قرآن) بالمعرفة والنكرة، لا بد من معرفة معناهما، ودلالاتهما الوضعية والاستعمالية.

أما لفظ (كتاب) في أصل الوضع فهو المجموعة حروفه وكلماته في دفتر أو كراس[١]، وأما استعماله في أوائل السور بدون-أل- فقد ورد بعدة معان، منها: القرآن المنزل على محمد-صلى الله عليه وسلم- والكتب المنزلة، واللوح المحفوظ، وصحائف بني آدم المكتوبة عند الملائكة، وغير ذلك.

---

(١) وقد سبق ذكره في المبحث الأول، ص٤.

وعلى هذا فإن لفظ (كتاب) تم تخصيصه بمعنى معين في أوائل السور، ليكون لفظ (كتاب) اسم علم-إذا أريد به ذات معينة كالقرآن-، واسم جنس إذا أريد به ذات غير معينة من أفراد جنسه كالكتاب المنزل.

وبهذا الاعتبار يكون لفظ (كتاب) الوارد في سورة الأعراف وهود وإبراهيم وفصلت بدون-أل-اسم علم بالغلبة؛ لغلبة استعماله وليس في أصل الوضع[1]، ومعناه هنا القرآن إلا في سورة الإسراء فإن معناه التوراة. ويكون (اسم جنس) في سورة النمل والطور؛ لأنه لا يختص بواحد دون آخر من أفراد جنسه[2]، فلفظ (كتاب) في سورة النمل يصلح أن يطلق على أي كتاب منزل، ولفظ (كتاب) في سورة الطور يصلح أن يطلق على أي صحيفة إنسان مكتوبة من قبل الملائكة.

وأما لفظ (قرآن) فهو اسم علم منقول، إذ كان قبل علميته يطلق على مجرد القراءة في أصل الوضع[3]، كما ورد في حديث (خفف على داود القرآن)[4]، ثم نقل هذا المعنى من المصدر-وهي القراءة- إلى تخصيصه بالمنزل على محمد-صلى الله عليه وسلم-فقط. وهو أشهر وأعرف من لفظ (كتاب)، ولا يحتمل معاني أخرى في الغالب، إلا إذا أريد به المعنى اللغوي بمعنى القراءة أو المقروء على أصله الأول، فحينئذ يكون نكرة بدون دخول (أل) عليه، كقوله تعالى: (إنا جعلناه قرآنا عربيًّا) (الزخرف:٣) أي: جعلنا القرآن مقروءً باللغة العربية.

---

(١) جامع الدروس العربية، الغلاييني، (١١٤/١).

(٢) المرجع السابق، (١٠٨/١).

(٣) فتح الباري على صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، (٣٩٧/٨).

(٤) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وآتينا داود زبورا)، رقم الحديث: ٣١٤٧، ج:٤، ص: ١٦٠.

دلالة دخول (أل) على (كتاب) و(قرآن) في أوائل السور:

وبناء على ما سبق ذكره، فإن (أل) إذا دخلت على اسم الجنس (كتاب) غير المعرفة، فإنها تفيد التعريف الجنسي، وإذا دخلت على اسم العلم بالغلبة (كتاب) فإنها تفيد التعريف العهدي.

وكذا الأمر في لفظ (قرآن)، فإذا دخلت (أل) على اسم العلم المنقول، فإنها تفيد لمح الأصل، وإذا دخلت على (قرآن) بحسب معناه الوضعي، فإنها تفيد التعريف العهدي.

والمراد بـــ (لمح الأصل) للعلم المنقول المحافظة على معناه القديم، والإبقاء على معناه الجديد[١]، وذلك يكون بإضافة (أل) على ذلك العلَم، مثل (القرآن) فإن معناه المنزل على محمد-صلى الله عليه وسلم-، ويفيد بمعناه الوضعي أنه مقروء.

دلالة التعريف ولمح الأصل بـــ (أل) في لفظي (الكتاب) و(القرآن):

أما دلالة التعريف العهدي بـــ (أل) فتفيد التعظيم للكتاب والقرآن، لأن الكتاب المنزل السابق أمر معظم عند الله تعالى وعند متبعيه، وكذا القرآن فهو كلام الله تعالى، معظم عند المسلمين. وأما (الكتاب) الوارد في سورة الجمعة بمعنى الكتابة والخط، فأيضًا يفيد التعظيم.

وأيضًا من دلالات التعريف العهدي الوضوح والشهرة، وهذا واقع على هذين اللفظين، ولما فيهما من معنى الكمال؛ لأنهما جاءا مصدرين، وكأنه لا يوجد كتاب غير هذا الكتاب، ولا قرآن غير هذا القرآن. ولأن المعرف هو أصل في الإخبار والأوصاف[٢].

---

(١) النحو الوافي، حسن عباس، (٤٣١/١).

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (٨/١٤).

وأما دلالة لمح الأصل بـــ (أل) فتفيد تحقق المعنى اللغوي في اسم العَلَم (القرآن). ومثال ذلك قوله تعالى: (الرحمنُ* علَّمَ القرآنَ) (الرحمن:١-٢).

دلالة عدم دخول (أل) على (كتاب) و(قرآن) المعرفتين

أما عدم دخول أل على المعرّف من اللفظين فهذا هو الأصل، وفي ذلك استبقاء للمعنى المعهود، وعدم التركيز على المعنى اللغوي، وذلك في تفسير (كتاب) باللوح المحفوظ في سورة سبأ، وتفسير (قرآن) بالمنزل على محمد- صلى الله عليه وسلم- في سورة الحجر مثلًا.

وأما عدم دخول (أل) على المنكر من اللفظين، فلعدة أمور:

أولاها: أن المراد به تخصيص (كتاب) عن غيره من الكتب بأنها مبينة أومسطرة[١]. وكذا (قرآن) بأنه عربي.

ثانيها: أنه جاء ما يسد مسد التعريف، كالتنوين في لفظ (كتاب) في سورة النمل والطور، ودلالة التنوين هنا تفيد التعظيم والتفخيم[٢] بالنسبة للكتاب المنزل، أو التكثير على من فسّره بصحائف الأعمال في سورة الطور. وكذا الأمر في لفظ (قرآنًا) في سورة فصلت فإنه يفيد التعظيم.

ثالثها: أن المنكّر أنسب بإجراء الأوصاف عليه[٣]، وحتى يسهل وصف الكتاب بأنه مبين وعربي، وكذا (قرآنًا) بأنه عربي.

رابعها: التنويع في استخدام اللفظين مرة بالمعرفة ومرة بالنكرة، وفي هذا تلوين للخطاب القرآني.

فإن قيل: لم نكّر (الكتاب) في سورة النمل وعرّف في سورة الحجر، وعرّف (القرآن) في سورة النمل ونكّره في سورة الحجر؛ قيل: "لأن القرآن

---

(١) الكشاف، الزمخشري (٤٠٨/٤).

(٢) المرجع السابق (٣٤٦/٣).

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (٨/١٤).

والكتاب اسمان علمان للمنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، ووصفان له لأنه يقرأ ويكتب، فحيث جاء بلفظ التعريف فهو العلم، وحيث جاء بلفظ التنكير فهو الوصف"[١] .

وقد ضعف هذا القول أبو حيان فقال: "وقيل: هما يجريان مجرى الْعبّاس، وعباسٍ فهو في الحالين اسم العلم. وهذا خطأ، إذ لو كان حاله نُزع منه علمًا، ما جاز أن يُوصَف بالنّكرة. ألا ترى إلى قوله: (وكتابٍ مبينٍ)، (وَقُرْآنٍ مُبِينٍ) ، وأنت لا تقول: مررتُ بعبّاسٍ قَائِمٍ، تريد به الوصف؟"[٢].

وعلى هذا فلا يصح أن يطلق على كلمة (كتاب) و(قرآن) في الآيتين أنهما نكرتان؛ لأنهما اسمان علمان في الآيتين من سورة الحجر والنمل. وأما قولهم "وتنكير القرآن للتفخيم"[٣]، فيقصد به نزع (أل) من (قرآن).

وأما سر ابتداء أحد اللفظين بالتعريف ب (أل) والثاني بنزع (أل) منه في سورتي الحجر والنمل؛ فذلك لما فِي التعرِيفِ بـــ (أل) من حصول الشهرة والوضوح والكمال لذلك العلم، وكأنك تقول: إنه الكتاب والقرآن الكامل الشامل المشهور الواضح؛ ولأنّ المعرَّف بـــ (أل) هو أصلُ الإخبار والأوصاف. ثم جيءَ بمنزوع (أل) لأنَّه أُريدَ وصْفُه بِالْمُبِينِ، وهو أنسَبُ بإجراء الأَوصاف عليه، ولأَنَّ ذلك يدُلُّ على التفخيم والتعظيم، فوُزِّعت الدلالتان على نكتة التعريف بـــ (أل) وَمنزوعها[٤].

---

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل، عبد الله النسفي (٥٩٠/٢). وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم، (٧٨٢/١٣)، والجامع لأحكام القرآن، محمد القرطبي، (١٥٥/١٣).

(٢) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، (٢٠٧/٨).

(٣) مدارك التنزيل وحقائق التأويل، عبد الله النسفي (١٨٢/٢)، واللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي،(٤٢٢/١١).

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (٨/١٤).

جدول توضيحي يبين موضع ودلالة لفظي (كتاب) و(قرآن) في أوائل السور:

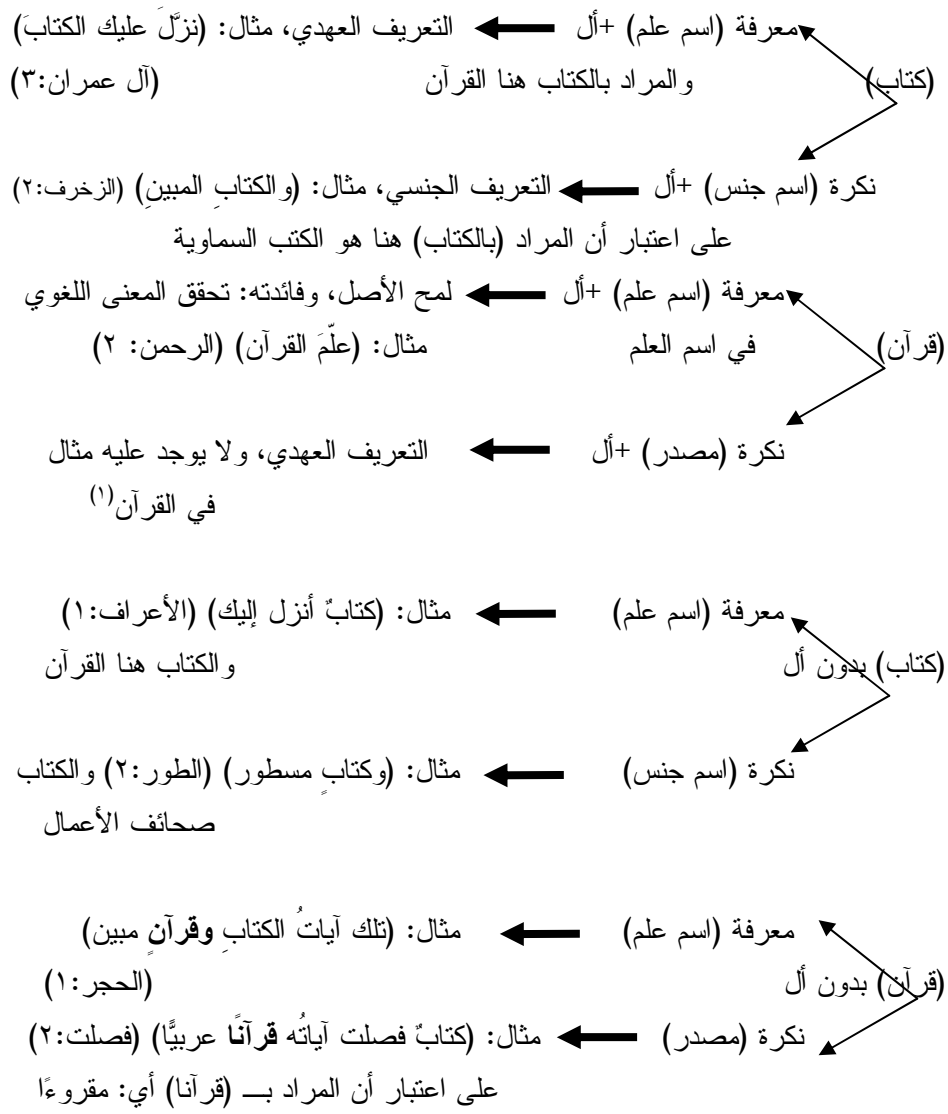

(١) هناك مثال في السنة، وهو: (خفف على داود القرآن)، وقد تقدم تخريجه.

المبحث الخامس

تطبيقات على (الكتاب والقرآن)

من حيث التقديم والتأخير

اشترك مطلع سورتي الحجر والنمل باقتران لفظ (الكتاب) مع (القرآن)، قال تعالى: (الر تلك آياتُ الكتابِ وقرآنٍ مبينٍ) (الحجر:١)، وقال تعالى: (طس تلك آياتُ القرآنِ وكتابٍ مبينٍ) (النمل: ١). مرة بتقديم الكتاب عن القرآن، ومرة بتأخير الكتاب عن القرآن.

وقبل بيان نكتة التقديم والتأخير في اللفظين، لا بد من تحديد معناهما في هذه السياقات القرآنية.

أما القرآن فغير مختلف فيه هنا في الموضعين، وهو المنزل على محمد-صلى الله عليه وسلم-، وأما الكتاب فقد اختلف المفسرون في معناه على أقوال عدة، أبرزها قولان، أحدهما: أن الكتاب هو القرآن، وثانيهما: أن الكتاب هو الكتب المنزلة السابقة، والذي يظهر للباحث أن القول الثاني هو الأرجح لما دلت عليه الآثار التفسيرية، ووافقه على ذلك السياق.

إلا أن الكتاب قدّم في الحجر وأخر في النمل، وهذا يحتمل أمورًا:

أولاها: أنه لا فرق بين التقديم والتأخير في المعنى[١]، وإنما قدّم هنا وأخّر هناك من باب التنويع وتلوين الخطاب-على قول من قال بأن الكتاب هو القرآن.

ثانيها: أن يقال: قدّم الكتاب في الحجر؛ لأنه أسبق في الوجود من القرآن، وأخره في النمل لأن علم القرآن متعلق به[٢].

---

(١) الكشاف، الزمخشري، (٣٤٧/٣).

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، (١٥٤/٤).

ثالثها: أن يقال: قدّم الكتاب لأنه شامل للقرآن في الحجر، وأخر في النمل لأن أصل القرآن موجود في الكتاب.

رابعها: أن يقال: تقديم الكتاب على القرآن من باب عطف الخاص على العام، وتأخير الكتاب عن القرآن من باب عطف العام على الخاص-على قول من قال بأن الكتاب هو الكتب المنزلة-. أما دلالة الأول فهي تخصيص القرآن وتمييزه عن باقي الكتب المنزلة، وأنه جاء بشريعة جديدة. وأما دلالة عطف العام على الخاص لبيان أن القرآن أحد هذه الكتب المنزلة، وأن هذه الكتب جاءت مصدقة له، وأنه جاء على طريقتها وعلى نفس دينها وملتها.

خامسها: أن يقال: قدّم الكتاب على القرآن في سورة الحجر؛ لإقامة الحجة على الكفار الذين كذّبوا بالقرآن. وقدّم القرآن في النمل؛ لأن المخاطب بذلك المؤمنون الذين ينتفعون بقراءته[1].

* *

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (٨/١٤).

المبحث السادس

تطبيقات على (الكتاب والقرآن)

من حيث تنوع المؤكدات

تنوعت المؤكدات في الجمل المشتملة على لفظ (الكتاب) و(القرآن) في أوائل السور، واشترك اللفظان في كثير منها، فمن ذلك:

١/ التوكيد بـــ (إنّ) على النحو الآتي:

أولًا: في لفظ الكتاب:

ورد مرة واحدة في سورة الزمر، قال تعالى: (إنّا أنزلنا إليك الكتابَ بالحقِّ) (آية:٢)

ودلالة هذا التأكيد الاهتمام بالخبر، والتعريض بالذين أنكروا أن يكون منزلًا من الله تعالى[١]، فتوكيد (الكتاب) بـــ (إنّ) هنا؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ[٢]، ولأنه دليل على ثبوت الحق وإظهاره[٣]، فهو-أي: القرآن- الجامع لما في الكتب السالفة مع زوائد خلا عنها كلها[٤] .

ثانيًا: في لفظ القرآن:

في سورة يوسف، قال تعالى: (إنا أنزلناه قرآنًا عربيًّا لعلكم تعقلون) (آية:٢).

وفي سورة الزخرف، قال تعالى: (إنا جعلناه قرآنًا عربيًّا لعلكم تعقلون) (آية:٢).

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (٣١٥/٢٣).

(٢) النكت والعيون، الماوردي، (١١٣/٥).

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، (٣٦/٥).

(٤) الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية، نعمة الله النخجواني، (٢٤٠/٢).

وفي سورة الجن: قال تعالى: (إنا سمعنا قرآنًا عجبًا) (آية:١)

ودلالة التوكيد بـــ (إن) في هذه الآيات أن القرآن منزل ومجعول من قبل الله تعالى، ومسموع للجن والإنس، باعتبار أنه-سبحانه- يخاطب قومًا يشكون في نزول القرآن ابتداء، وكونه من عند الله، وأن التكذيب متوقع منهم عند سماعه.

وأُكِّد (بالقرآن) هنا لأنه مقروء دون حضور كتاب، وميسر سهل التناول، ومفيد للقارئ بمعانيه وتدبره[١].

٢/ التوكيد بأسلوب الحصر بـــ (إلا)، وأسلوب تقديم ما حقه التأخير على النحو الآتي:

أولا: في لفظ الكتاب:

في سورة سبأ، قال تعالى: (..ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ إلا في كتابٍ مبينٍ) (آية:٣)، وهذا أسلوب الحصر بـــ (لا) النافية مع (إلا) المفيدة للحصر.

وفي سورة ق، قال تعالى: (وعندنا كتابٌ حفيظٌ) (آية:٤)، وهذا أسلوب تقديم ما حقه التأخير، حيث قدّم الخبر على المبتدأ.

وهذان الأسلوبان من المؤكدات جاءا في لفظ (الكتاب)، والمراد به هنا اللوح المحفوظ. وكأن الله تعالى يخبرنا أن اللوح المحفوظ مكتوب فيه كل شيء من صغير الأعمال وكبيرها، وموجود عنده فلا يضيع منه شيء. وفيه دلالة على علم الله الواسع، وعلى ركن من أركان الإيمان بالقدر، ألا وهو الكتابة.

ثانيًا: في لفظ القرآن:

في سورة طه، قال تعالى: (ما أنزلنا عليك القرآنَ لتشقى إلا تذكرةً لمن يخشى) (آية: ٢-٣)، وهذا أسلوب الحصر بـــ (ما) النافية مع (إلا).

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (٢٠١/١٢).

ودلالة هذا الأسلوب من المؤكدات أن المقصود من إنزال القرآن هو تذكرة الخلق، وليس التعب المبالغ فيه في العبادة[1]، فالقرآن نزل رحمة وهداية للناس لا عكس ذلك. وذلك أن الله سبحانه أبلغ نبيه–صلى الله عليه وسلم– قبل هذه الآيات بأنه سيلقي عليه قولًا ثقيلًا، وطلب منه قيام الليل إلا قليلًا. ولما كان من خطأ فهمٍ لبعض المسلمين بأن قيام الليل كاملًا دون انقطاع أفضل وأتم، وأن بعضهم لا يرقد أبدًا، دفعَ الله سبحانه هذا الظن بأن المقصود من قيام الليل هو الاستعانة به على تبليغ الرسالة، وليس حصول الضرر والنصب في هذا القيام، فناسب أن يؤكده بأسلوب الحصر.

٣/ التوكيد بأسلوب تعريف الطرفين (المسند والمسند إليه) على النحو الآتي:

أولًا: في لفظ الكتاب:

كما في سورة البقرة، قال تعالى: (ذلك الكتابُ) (آية:٢)، وسورة يونس، قال تعالى: (تلك آياتُ الكتابِ الحكيم) (آية:١)، ويوسف، قال تعالى: (تلكَ آياتُ الكتابِ المبين) (آية:١)، والرعد، قال تعالى: (تلك آياتُ الكتابِ) (آية:١)، والحجر، قال تعالى: (تلك آياتُ الكتابِ وقرآنٍ مبين) (آية:١)، والشعراء، قال تعالى: (تلك آياتُ الكتابِ المبينِ) (آية:٢)، والقصص، قال تعالى: (تلك آياتُ الكتابِ المبينِ) (آية:٢)، ولقمان، قال تعالى: (تلك آياتُ الكتابِ الحكيم) (آية:٢)، والزمر(الموضع الأول)، قال تعالى: (تنزيلُ الكتابِ من الله العزيز الحكيم) (آية:١)، وغافر، قال تعالى: (تنزيلُ الكتابِ من الله العزيز العليم) (آية:٢)، والجاثية، قال تعالى: (تنزيلُ الكتابِ من الله العزيزِ الحكيمِ) (آية:٢)، والأحقاف، قال تعالى: (تنزيلُ الكتابِ من اللهِ العزيزِ الحكيمِ) (آية:٢). على اعتبار أن إعراب (تنزيل) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو.

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الكلبي، (٥/٢).

ثانيًا: في لفظ القرآن:

ورد فقط في سورة النمل، قال تعالى: (تلك آياتُ القرآنِ وكتابٍ مبين) (آية:١). وقد يقال: السورة التي ورد فيها عطف القرآن على الكتاب تعد من الجمل المؤكدة، مثل سورة الحجر في قوله تعالى: (تلك آياتُ الكتابِ وقرآنٍ مبين) (آية:١)، والتقدير: تلك آيات الكتاب، وتلك آيات قرآن مبين.

ودلالة تعريف المسند والمسند إليه في هذه الآيات كمال القرآن وشموله، أو تصديق القرآن للكتب السماوية، وكأنها من منبع واحد. فعلى التوجيه الأول يكون المراد أنه لا كتاب معتبر إلا القرآن، ولا قرآن منتفع به إلا هو، وأن القرآن ناسخ لما قبله من الكتب ومهيمن عليه. وأما على التوجيه الثاني فيكون المراد أن القرآن من جنس الكتب السماوية، وأنه جاء مصدقًا لما قبله، وأن اتباع هذه الكتب المؤيدة للقرآن خير من اتباع غيرها.

وعلى هذا يكون تعريف الطرفين المتضمن للفظ (الكتاب) أو(القرآن) مشتركًا في سياق واحد، وهو قوله تعالى: (تلك آياتُ الكتاب) و(تلك آياتُ القرآن). ودلالته أن آيات الكتاب هي آيات القرآن.

ويكون مفترقًا في المواضع المتضمنة للفظ (الكتاب)، مثل:(ذلك الكتابُ)، (تنزيل الكتابِ).

فلم يرد في المصحف (ذلك القرآن) ولا (تنزيل القرآن). وتوجيه ذلك أن لفظة (ذلك) و(تنزيل) جاءتا في سياق يراد به التفخيم والتعظيم، ولا يراد هذا في لفظ (القرآن) الدال على السهولة واليسر والنفع.

٤/التوكيد بأسلوب القسم، وذلك على النحو الآتي:

أولًا: في لفظ الكتاب:

في سورة الزخرف والدخان، قال تعالى: (والكتابِ المبينِ) (آية:٢)

في سورة الطور، قال تعالى: (وكتابٍ مسطورٍ) (آية:٢)

ثانيًا: في لفظ القرآن

في سورة يس، قال تعالى: (والقرآنِ الحكيمِ) (آية:٢).

وفي سورة ص، قال تعالى: (والقرآنِ ذي الذكرِ) (آية:١).

وفي سورة ق، قال تعالى: (والقرآنِ المجيدِ) (آية:١).

ودلالة القسم بالكتاب، تعظيماً لنعمته في النبي–صلى الله عليه وسلم–[١]."وفيه تشريفٌ للقرآن، وترفيع"[٢] وتعظيم للكتب المنزلة."وهو من الأيمان الحسنة البديعة، لتناسب القسم والمقسم عليه، وكونهما من واد واحد"[٣].

فعلى من فسّر الكتاب بالقرآن عدّ هذا قسمًا بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين وأطلق، ولم يذكر المتعلق؛ ليدل على أنه مبين لكل ما يحتاج إليه العباد من أمور الدنيا والدين[٤]. "وتَنْبِيهًا على زيادة مكانته عند المقسم"[٥] و" استشهادًا بما فيها من الدلالة عليه"[٦].

وعلى من فسر (الكتاب) بالكتابة، فقد قيل أنه "أقسم بالكتابة لكَثرة ما فيها من المنافع، فإنَ العلوم إنّما تكاملت بسبب الخطّ، فإنّ المتقَدّم إِذا استنبط علما

---

(١) غرائب التفسير وعجائب التأويل، محمود الكرماني، (١٠٥٩/٢). وانظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، الحسن النيسابوري (٨٤/٦). وانظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، (٥٦٢/٢١)، و(٧/٢٢).

(٢) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمن الثعالبي، (١٧٢/٥). وانظر: مراح لبيد لكشف معنى الرآن المجيد، محمد الجاوي، (٣٩١/٢).

(٣) الكشاف، الزمخشري، (٢٣٥/٤).

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن ابن سعدي، (٧٦٢/١).

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (٣٣٨/٢٩).

(٦) التفسير المظهري، محمد ثناء الله، (٣٣٧/٤).

وأثبته في كتابٍ، وجاء المتأخِّرُ ووقف عليه أمكنه أن يزيد في استنباط الفوائد، فبهذا الطَّريق تكاثرت الفوائدُ وانتهتْ إلى الغايات العظيمة"[١].

وأما السور التي أقسم فيها بالقرآن، فهي" كناية عن شرف قَدره وتعظيمه عند اللَّه تعالى، والمقصود من هذا القسم تأكيد الخبر مع ذلك التّنويه"[٢].

وهناك فائدة دقيقة، وهي أن السور الذي ذكر فيها القسم بـــ (الكتاب) جاءت من باب محاجة أهل الكتاب في كتبهم والتعريض بعدم إيمانهم بما جاء بها، ومنها الدعوة إلى الإيمان بالقرآن الكريم، فسورة الشورى-وهي قبل الزخرف-تؤكد هذا المعنى، ومثاله: (وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم..) (آية:١٤)، (وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب) (آية:١٥)، فيكون ذكرها هنا من باب التصديق بالكتب السابقة، وتعظيم القرآن الكريم[٣].

ثم جاءت سورة الزخرف-وهي قبل الدخان-وكان من ضمنها تحدي موسى لفرعون وملئه، ومجيء عيسى بالحكمة والبينات، وإقامة الحجة على قومه.

وأما في السور التي أُقسم فيها بالقرآن، كسورة (يس وص وق) فليس المقصود أهل الكتاب ابتداء، ولم يذكروا في هذه السور ألبتة، وإنما المقصود كفار مكة. ودلائل ذلك ما يلي:

ففي سورة يس، قال تعالى: (وجعلنا من بين أيديهم سَدًّا ومن خلفهم سَدًّا) (آية:٩)

(١) التفسير الكبير، الرازي، (٦١٦/٢٧).

(٢) السابق، (٦١٦/٢٧).

(٣) نظم الدرر في تناسب الآي والسور، برهان الدين البقاعي، (٣٨٢/١٧).

وفي سورة ص، قال تعالى: (أَجَعَلَ الآلهةَ إلهًا واحدًا إن هذا لشيءٌ عجابٌ) (آية:٥). وفيه أن أبا طالب مرض مرض الموت[١].

وفي سورة ق، قال تعالى: (بل كذبوا بالحقِّ لمَّا جاءهم فهم في أمرٍ مريجٍ) (آية:٥)، والمراد كفار قريش.

٥/ الإخبار بالفعل الماضي عن المستقبل دلالة على تحققه، وتأكيد وقوعه.

أولًا: في لفظ الكتاب:

في سورة آل عمران: (نَزَّل عليكَ الكتابَ) (آية:٣)، وفي سورة الأعراف: (كتابٌ أُنزِل إليك) (آية:٢)، وفي سورة إبراهيم: (كتابٌ أنزلناه إليكَ) (آية:١)، وفي سورة هود: (كتابٌ أُحكِمَت آياتُه) (آية:١)، وفي سورة الكهف: (الحمدُ لله الذي أَنزلَ على عبده الكتابَ) (آية:١)، وفي سورة فصلت، قال تعالى: (كتابٌ فصلت آياتُه) (آية:٣).

ففي ذلك دلالة على أنه سيكون كتابًا منزلًا ومحكمًا ومفصلًا، وإن لم يكتمل بعدُ نزوله.

ثانيًا: في لفظ القرآن:

في سورة الرحمن، قال تعالى: (الرحمنُ علّم القرآنَ) (آية:١-٢).

وفي ذلك دلالة على أن الرحمن سيمُنّ على عباده بتعليم القرآن، وسينتفعون به أيما انتفاع.

وخلاصة الكلام أن الأفعال الماضية الدالة على تحقق الوقوع في سياق لفظ (الكتاب) هي الأفعال الآتية: (نزّل، وأُنزِل، وأَنزَل، وأُحكمت، وفصلت)، وكلها أفعال يراد بها إثبات أن القرآن حق. والفعل الماضي الوحيد في سياق لفظ (القرآن) هو (علّم)، وهو دال على أن القرآن فيه الخير الكثير، والنفع العميم من الرحمن الرحيم.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآي والسور، البقاعي، (٣٣٤/١٦).

٦/ الإتيان بالاسم المنصوب لتوكيد فعله

أولًا: في لفظ الكتاب:

في سورة فصلت: (كتابٌ فصلت آياتُه قرآنًا عربيًّا) (آية:٣).

فمن إعرابات (قرآنا) أنه حال، وهي مؤكدة؛ لأنها مما لا تنتقل، وصاحب الحال الكتاب[١]، وقيل: نصب (قرآنا) على المصدر، والتقدير: أقرؤه قرآنا على التأكيد، وقيل: نصب على المدح والاختصاص[٢]، والتقدير: كتاب فصلت آياته، أي: أخص القرآن منه وأمدحه.

وعلى هذا يكون المعنى المراد تأكيد أن هذا الكتاب مقروء بالعربية المبيّنة.

ثانيًا: في لفظ القرآن:

في سورة المزمل، قال تعالى: (ورتلِ القرآنَ ترتيلًا) (آية:٤).

فالمراد هنا التأكيد على أهمية التريث والتمهل في القراءة، حتى يفهم معناه[٣].

وعلى هذا يكون لفظ (الكتاب) أكّد بالحال، ولفظ (القرآن) أكد بالمفعول المطلق، وفائدة هذه التوكيدات دفع توهم معنى آخر، فلا يجوز أن يحمل معنى الكتاب في قوله تعالى: (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا) على الكتيبة من الجيش؛ لأن (قرآنًا) أبعدت هذا المعنى وصرفته. ولا يجوز أن يكون المراد من (القرآن) في قوله تعالى: (ورتل القرآن ترتيلًا) أيْ كلام مقروء، لأن لفظة (ترتيلًا) تؤكد أن المراد هو القرآن وحده لا غيره.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، (٩٧/١٧). وانظر: المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز، ابن عطية الأندلسي، (٣/٥).

(٢) الكشاف، الزمخشري، (١٨٤/٤).

(٣) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، (٢٣٩/٥).

وأما ما جاء بصيغة الخبر المجرد عن أدوات التوكيد، كما في سورة الإسراء، قال تعالى: (وآتينا موسى الكتابَ) (آية:٢)، وفي سورة الجمعة: (ويعلمهم الكتابَ والحكمةَ) (آية:٢) فتوجيهه أن الآية التي في سورة الإسراء تتحدث عن بني إسرائيل المؤمنين بالتوراة، خلاف ما جاء في سورة السجدة في قوله تعالى: (ولقد آتينا موسى الكتابَ) (آية:٢٣)، فقد جاءت مؤكدة بلفظ (ولقد)؛ لأنها تتحدث عن المشركين الذين يكفرون بالنبوات وبكتبهم. وأما الآية التي في سورة الجمعة، فقد جاء الفعل فيها بصيغة المضارعة (ويعلمهم) لاستحضار النعمة المتجددة في التعليم بالخط والكتابة لهؤلاء الأميين، بخلاف الفعل الماضي في قوله تعالى: (علّمَ القرآنَ) الدال على تحقق تعلم القرآن من الله تعالى لعباده المؤمنين، وتوكيد حصول هذا الخبر قبل وقوعه.

* *

نتائج البحث

وبعد هذا التطواف، والموازنة بين كلمتي (الكتاب) و(القرآن) توصل الباحث إلى النتائج التالية:

١- التعبير بالكتاب له مدلول يختلف عن مدلول القرآن، فمن مدلولات الكتاب أنه شيء محسوس وملموس وموثق، وأثره أبقى في الواقع من الكلام غير المكتوب.

وأما القرآن فمدلوله الكلام المقروء من غير إحضار الكتاب، وسهولة قراءته وفهمه والعمل به.

٢- في تعريف (الكتاب) بـــ (أل) دلالة على العهد التقديري-إن أريد به القرآن. أو دلالة على اسم الجنس- إن أريد به الكتب السماوية.

وفي تعريف (القرآن) بـــ (أل) دلالة على لمح الأصل، وأنه غير منكر دون (أل)؛ لأنه اسم علم منقول، إلا إذا كان المقصود من (القرآن) القراءة المحضة.

وفي تنكير (كتاب) دلالة على إرادة النوع لا الفرد، أي: إرادة القرآن خاصة من بين الكتب السماوية ، لإزالة الإبهام، والتعظيم والتفخيم.

وفي حذف (أل) عن (القرآن) دلالة على أنه علم أيضًا، وأنسب لأن يوصف بأفضل الأوصاف.

٣- في تقديم وتأخير لفظي (الكتاب والقرآن) على بعضهما البعض دلالات، منها:

أ-أنه لا فرق بينهما في الدلالة، وخاصة إن أريد بهما المنزل على محمد -صلى الله عليه وسلم-.

ب- أن بينهما فرقًا في الدلالة، وهذا الأمر يختلف باختلاف المعنى والسياق، كل بحسبه.

كأن يكون المراد بـــ (الكتاب) الكتب السابقة، فيكون ذكر (القرآن) هنا للتخصيص، وقد يكون العكس، أن المراد بـــ (القرآن) الكتب السابقة، فيكون ذكر (الكتاب) هنا للتخصيص.

وقد يقال: إن المراد من تقديم الكتاب على القرآن في سورة الحجر؛ لتحسير الكفار رغم وجود شيء محسوس؛ لإقامة الحجة عليهم.

وفي تأخير الكتاب على القرآن في سورة النمل؛ لبيان تكريم المؤمنين، وعلو منزلتهم بهذا القرآن، ولأنهم انتقلوا إلى مرحلة الانتفاع منه بقراءته وتدارسه.

٤- جاء لفظ (الكتاب) و (القرآن) في جمل مؤكدة متنوعة، مثل: (إن)، والقسم؛ لبيان تشكيك المخاطب، وغرابة كفره بالقرآن، ودلالة على تعمق الكفار في كفرهم والإغراق فيه، ولأنه يفيد تعظيم القرآن وتبجيله.

٥- ورود اسم الإشارة (ذلك) مع لفظ (الكتاب) ليدل على التعظيم والتفخيم لهذا الكتاب، ولم يرد مع لفظ (القرآن)؛ وإنما ورد (القرآن) مع اسم الإشارة (هذا) في غير أوائل السور؛ لأن قراءته سهلة وميسرة.

* *

المصادر والمراجع

١. إبراهيم بن السري الزجاج، **معاني القرآن وإعرابه**، (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٨ هـ -١٩٨٨م).

إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، ١٤١٨هـ).

٢. أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، (بيروت: المكتبة العصرية، ١٤١٧هـ).

٣. أحمد بن علي بن حجر، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩هـ).

٤. أحمد بن فارس، **مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام هارون، (بيروت: دار الفكر،١٣٩٩هـ).

٥. أحمد بن يوسف السمين الحلبي، **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، تحقيق: أحمد الخراط، (دمشق: دار القلم، د.ت).

٦. إسماعيل بن كثير أبو الفداء، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، (السعودية: دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ -١٩٩٩ م).

٧. الحسن بن محمد النيسابوري، **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، (بيروت: دار الكتب العلميه،١٤١٦هـ).

٨. الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، (دمشق وبيروت: دار القلم، الدار الشامية، ١٤١٢ هـ).

٩. عباس حسن، **النحو الوافي**، (القاهرة: دار المعارف، ١٤٢٠هـ).

١٠. عبد الحق بن غالب بن عطية، المحرر **الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز**، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ).

١١. عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، **معترك الأقران في إعجاز القرآن**، (بيروت: دار الكتب العلمية،١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م).

١٢. عبد الرحمن بن محمد بن أبي حاتم، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: أسعد محمد الطيب، (السعودية: مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٤١٩ هـ).

١٣. عبد الرحمن بن محمد بن أبي حاتم، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: أسعد محمد الطيب، (السعودية: مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٤١٩ هـ).

١٤. عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**، تحقيق: محمد معوض، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨هـ).

١٥. عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، (بيروت: مؤسسة الرسالة،١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م).

١٦. عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، **الشعر والشعراء**، (القاهرة: دار الحديث، ١٤٢٣هـ).

١٧. عبد الله بن أحمد النسفي، **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، تحقيق: يوسف علي بديوي، (بيروت: دار الكلم الطيب، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م).

١٨. عبد الله بن عمر البيضاوي، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨ هـ).

١٩. علي بن أحمد الواحدي، **التفسير البسيط**، تحقيق: د. محمد الحضيري، (الرياض: جامعة الإمام محمد ابن سعود، ١٤٣٠هـ).

٢٠. علي بن محمد البصري الماوردي، **النكت والعيون**، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت).
٢١. عمر بن علي بن عادل الحنبلي، **اللباب في علوم الكتاب**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م).
٢٢. عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ، **البيان والتبيين**، (بيروت: دار الهلال، ١٤٢٣هـ).
٢٣. محمد الطاهر بن محمد بن عاشور، **تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد**، (تونس: الدار التونسية، ١٩٨٤م).
٢٤. محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي، **التسهيل لعلوم التنزيل**، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، (بيروت، دار الأرقم بن أبي الأرقم، ١٤١٦هـ).
٢٥. محمد بن أحمد القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: أحمد البردوني، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٨٤هـ -١٩٦٤م).
٢٦. محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، **تهذيب اللغة**، تحقيق: محمد عوض مرعب، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١م).
٢٧. محمد بن إسماعيل البخاري، **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه**، تحقيق: محمد زهير، (بيروت: دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ).
٢٨. محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠م).
٢٩. محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، **الإيضاح في علوم البلاغة**، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، (بيروت: دار الجيل، ١٤٢٥هـ).
٣٠. محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني، **شرح الكافية الشافية**، تحقيق: عبد المنعم أحمد هريدي، (جامعة أم القرى: مركز البحث العلمي

وإحياء التراث الإسلامي كلية الشريعة والدراسات الإسلامية مكة المكرمة، ١٤٠٠هـ).

٣١. محمد بن عمر فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، (بيروت: دار إحياء التراث،١٤٢٠هـ).

٣٢. محمد بن عمر نووي الجاوي، **مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد**، تحقيق: محمد أمين الصناوي، (بيروت: دار الكتب العلمية،١٤١٧ هـ).

٣٣. محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، تحقيق: محمد نعيم العرقسُوسي، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م).

٣٤. محمد بن يوسف بن حيان، **البحر المحيط في التفسير**، تحقيق: صدقي جميل، (بيروت: دار الفكر، ١٤٢٠هـ).

٣٥. محمد ثناء الله المظهري، **التفسير المظهري**، تحقيق: غلام نبي التونسي، (الباكستان: مكتبة الرشدية،١٤١٢ هـ).

٣٦. محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، **غرائب التفسير وعجائب التأويل**، (جدة- بيروت: دار القبلة للثقافة الإسلامية، مؤسسة علوم القرآن، ١٤١٢هـ).

٣٧. محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، (بيروت: دار الكتاب العربي،١٤٠٧ هـ).

٣٨. مصطفى بن محمد سليم الغلاييني، **جامع الدروس العربية**، (صيدا - بيروت: المكتبة العصرية، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م).

٣٩. نعمة الله بن محمود النخجواني، **الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية**، (مصر- دار ركابي للنشر، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م).

* * *